جدل الأنساق المضمرة في "قبل الحب بقليل" لأمين الزاوي

The controversy of the hidden patterns in " shortly before love ".by « amin alzawi

آمال منصور

[1] جامعة محمد خيضر – بسكرة (الجزائر)، a.mansour@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/19 تاريخ القبول: 2022/03/23 تاريخ النشر: 2022/06/11

الملخص:

تعالج هذه الدراسة حركية النسق داخل رواية "قبل الحب بقليل" حيث تؤسس الرواية لأنساقها الخاصة بعيدا عن سيطرة المؤسسة الاجتماعية، فتمارس انتهاكا لشرعية النسق الظاهر لخلق عرف مختلف من خلال سيادة النسق المضمر ، فتصبح موضوعات الدين و الجنس والسياسة كلها محل جدل و مساءلة. يعكس الكاتب في هذه الرواية وعيا عميقا لكثير من المشكلات و الهموم، و ينفتح على سياقات متعددة ثقافية و معرفية و تاريخية جعلت النص جديرا بالبحث و التحليل.

الكلمات المفتاحية: النسق الظاهر، النسق المضمر، النسق المضاد، المقدس، المدنس.

Abstract:

This study deals with the dynamics of the pattern within the novel "shortly before love " where the novel establishes its own pattern far from the control of the social establishment, so it's practiced in violation of the legitimacy of the apparent system to create a different custom through the supremacy of the implicit system, so all the issues of religion and gender and politics become the subject of controversy and questioning.

Key words : Apparent system ,implicit system, holy ,profane.

المؤلف المرسل: آمال منصور، **الإيميل:** a.mansour@univ-biskra.dz

مقدمة:

لا تكف الرواية عن كونها نصا مباغتا، مراوغا، يتلاعب بالحقيقة والواقع لينقلنا إلى عوالم المتخيل و الحلم، إنها سفر نحو متاهات الطابوهات والمحرمات والمقدسات في آن واحد.

فالرواية عندما تجنح إلى بناء واقع جديد وحقيقة جديدة، تقوم بتعرية الواقع السياسي والثقافي والاجتماعي للأمّة، وتكتنز بداخلها أنساقا أخرى تعرضها للفرجة والسؤال. فهي عندما تقوم بذلك، تدرك تماما أن بلاغة القول تكمن في التلميح لا في التصريح، في التكنية لا بالكشف والإظهار.

هكذا يتأسس الخطاب الروائي عند "أمين الزاوي" في روايته الموسومة بـ"قبل الحب بقليل" فهي رواية من أجل تاريخ جديد وحلم جديد، حلم يحول الحب شريعة وعقيدة.

ففي هذه الرواية يعمد "أمين الزاوي" إلى تعرية نظام " هواري بومدين" وكشف مزالقه، كما يتعرض للحلم الذي تهشم بعد الاستقلال، من خلال حياة العائدين من فرنسا إلى بلدهم الأم، متوهمين أن هذا الوطن سيستقبلهم بالورود والآمال.

ثمّ كيف تحطمت طموحات الكثيرين مثل: "هيتشكوك" الذي تمنى أن يصبح مخرجا سينيمائيا عالميا، و"هابيل" الذي تدفن أحلامه في رصيف بائس لبيع الكتب القديمة ، و"البابا سليمان" و "سي سفيان" اللذين تنتهي رحلتهما الثورية من أجل الوطن خارج الذاكرة.

أما "سارة" فتعجز عن ايجاد السعادة مع زوجها "سي سفيان" فتغرق في الخطيئة، وتتدنّس بالخطايا حتىّ الثمالة مع هابيل.....

هؤلاء وغيرهم في الرواية نماذج بشرية تترجم الحلم المهزوم والأمل المنهار بعد الاستقلال.

1. مراوغة النسق و لعبة الحضور و الغياب في الرواية:

إذا كانت الثقافة حصيلة التراكم المعرفي و العلمي للأفراد طيلة مدة غير وجيزة من الزمن فهي إن كانت معنى مجردا، فإنها تكتسب بعدا تطبيقيا في الحياة اليومية، فهي تطبع سلوك الأفراد و نشاطهم.

و تتشكل الثقافة باعتبارها مجموعة من الأنساق، والنسق هو تشريع أو قانون تصنعه الثقافة من أجل الهيمنة والسيطرة على المؤسسة الاجتماعية.

وغالبا ما يعمل المجتمع على مراوغة هذه الأنظمة لصنع تشريع خاص به، ومن هذا المنظور يتشكل النسق باعتباره ثنائية: طرفها الأول: ظاهر علني، و الثاني خفي مسكوت عنه.

«فالنسق المضمر يرسم ضن تلابيبه وشائح ثقافية غير معلنة ضمن حفرية إيديولوجية تتبلور في حضورها ضمن نسق ثقافي لتقول شيئا آخر يتوارى وراء النسق الجمالي المعلن » (بوقرط، 2020، صفحة 14)

إن الرواية مصنع ثقافي من مصنعات الطبقوسطي(البرجوازي) (العجيلي، 2011، صفحة 63)، و مادامت كذلك فهي تمثل ذاكرة مشتركة و نسيجا من الثقافة و العقيدة و السياسة، يسود فيها الصراع من أجل البقاء.

لقد تمكنّ النص الروائي في الجزائر من تلقّف سياسات الهوية، التي اتّسع مداها فيه، ممّا جعله مجلى لممارسة الخصوصية الثقافية (العجيلي، 2011، صفحة 63).

إن النقد الثقافي مناسب لمثل هذه الأطروحات التي لا تركز على الجمالي، بل تتقصّد قراءة الخطابات« بوصفها جزءا من السلطة، كما يتجه في اهتماماته إلى الانكباب على قضايا الغيرية، و التعددية الثقافية، و فكرة التمثيل، و الهوية الثقافية، علاقة المستعمر بالمستعمر، و ذلك من أجل الوقوف على الممارسات الثقافية من جهة، و الكشف عن الأبعاد الاقتصادية و السياسية للنصوص من جهة أخرى » . (العجيلي، 2011، صفحة 64)

يتعامل النقد الثقافي مع الخطابات« بوصفها حادثة ثقافية، تشتبك مع الأنساق الثقافية و الاجتماعية و السياسية، الشيء الذي يستوجب قراءتها في ضوء هذه العلاقات المركبة، بهدف الوقوف على الطابع الدنيوي لهذه النصوص. (العجيلي، 2011، صفحة 358)

تؤسس رواية "قبل الحب بقليل" لسؤال الخصوصية عن طريق ثنائيات كثيرة"، تؤطر الحياة و تعكس زيفها منها:

1-1- المقدس/المدنس :

يتداخل المقدس والمدنّس إلى درجة يصبح كليهما عملة ذات وجهين كالإله اليوناني جانوس janus، فتدخل الأنا في محكمة دينية اجتماعية لتمييزهما.

فالمقدس معنى سام يرتبط بالخارق للطبيعة، بينما المدنس يرتبط بالخطيئة وبالإنسان والطبيعة القابلة للفساد (بوركه، 2017/08/12).

أما عن معنى "المقدس" في موسوعة لالاند الفلسفية فنجد أن القدسي sacré والدنيوي مصطلحان متلازمان لا معنى لأحدهما إلا بالآخر. (أحمد، 2001، صفحة 568)

فإذا كانت الأديان قد رسمت الحدود الفاصلة بين ما هو مقدس و ما هو مدنس، إلاّ أنها تبقى على اتفاق في اعتبار أن الدنيا مساحة واسعة لبني آدم لتحصيل الحسنات واحترام المقدسات، و أن الآخرة هي دار الحساب.

لكن دور كهايم في كتابة: الأشكال الأولية للحياة الدينية(1915) les formes élémentaires de la vie religieuse يعيد هذه الثنائية للمسرح الديني: الدين هو نظام موحد من المعتقدات و الممارسات المرتبطة بأشياء مقدسة، أي أشياء يجري عزلها وتحاط بأشياء مقدسة، أي أشياء يجري عزلها و تحاط بشتى أنواع التحريم، و هذه المعتقدات و الممارسات تجمع كل المؤمنين بها في جماعة أخلاقية واحدة تدعى الكنيسة.

هكذا، فإذا كان احترام المقدسات من صميم كل ما هو ديني فإن الرواية تقوم بفضح عيوب الحياة في المجتمع، و تكشف المخفي و تضعه تحت مجهر المساءلة...ففي "قبل الحب بقليل" يطرق (أمين الزاوي) ابواب المدنسات و يفضح المسكوت عنه، ففي اللحظة التي يكتب فيها (هابيل) السيرة الثورية(لسي سفيان) تخليدا للثورة المقدسة في الجزائر، ينتهك في الوقت ذاته حرمة (سي سفيان) و يمارس مدنسا في الآن ذاته. و بذلك يعيد "هابيل" تاريخه في الذهنية الإسلامية بأنّه رمز للخطيئة فما كان ظاهرا علنيا أصبح مزيفا، و ما هو خفيّ هو النسق المضمر .

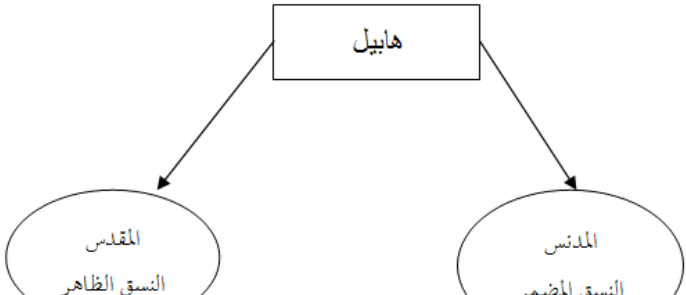

فالشخوص في الرواية ليست هي الوحيدة التي تخترق قانون المقدس/المدنس بل حتى الأمكنة أيضا، فوهران تتحول من مكان حميمي إلى مكان معادي مثلما يقول:« وهران جرح يتجدد كل يوم في فيعطيك ألما جديدا يخرج من أحشاء ألم قديم (الزاوي، 2015، صفحة 78) » يفوح بالدنس، فهي مدينة المفارقات ، هي مدينة تجبر كل من تحويهم أن يصبحوا على دين و عقيدة واحدة أو أن يتظاهروا بذلك:« يمنع على الفلسطينيين و السوريين من الطلبة الإفطار في رمضان، حتى و إن كانوا مسيحيين أو دروزا، ففي رأي الجزائري كل عربي هو مسلم إجباريا » (الزاوي، 2015، صفحة 34)

فالمقدس في هذه المدينة يتحول مجرد تقليد ليس أكثر، مجرد نسق جمعي يتبناه الأفراد ظاهريا للانخراط في الجماعة يقول:« الجزائري يصوم شرفا لا إيمانا، الجزائري يصوم رجولة لا إيمانا، ابتداء من ليلة الشك، يتوقف الجميع عن الشرب، و تكتفي البارات التي تظل مفتوحة بتقديم خدمات للأجانب من فرنسيين و اسبان و أمريكيين » (الزاوي، 2015، صفحة 65).

و هذه المدينة التي تتظاهر بالدين كل مرة، تخفي داخل أسوارها كل أشكال الفساد يقول:« شارع مليء بالحانات و المطاعم الصغيرة المكتظة بفئة خاصة من الزبائن، من المخنثين و اللواطيين و السحاقيات، و تقدم أنواعا خاصة من المأكولات دون توقف حتى آذان الفجر»(الزاوي، 2015، صفحة 44)

يقدم "أمين الزاوي" وهران بصورة ضدية حيث يحتار القارئ: هل يحبها؟أم يمقتها؟ يحن إليها أم جرحها لا زال غائرا في أعماقه. إنك للحظات تتوهم أن من يتكلم عنها هو (ألبير كامو) الذي طبعها بالطاعون و الجرذان. و جعل منها مدينة تستسلم للموت كل لحظة بقوله:« المدن كوهران تشيخ كما تشيخ النساء الجميلات » (الزاوي، 2015، صفحة 75).

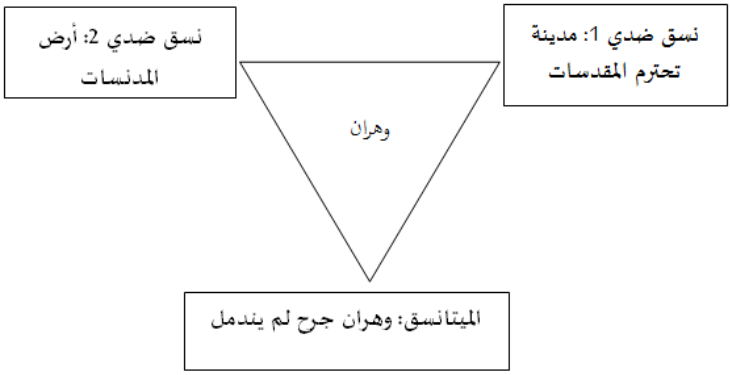

إذا كان الدين قد رفع من قيمة الجسد و كرّمه مصداقا لقوله تعالى: ((**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**)) (الإسراء/70) فإن علاقة الذات بالجسد علاقة شائكة خاصة في الثقافة العربية، فقد ظلت قيمة الجسد في المؤسسة الثقافية محل ارتباك، تحيط به القداسة تارة باعتباره محرما من المحرمات التي يجب التعامل معها بحذر، و يكتنفه الدنس من جهة أخرى، لأنه موطن الشبهات و سبب الخطايا و أب الفتنة.

إنّ« الجسد علامة ثقافية فارقة تستمد مقوماتها الدلالية عبر المواضعة الاجتماعية التي تؤسس لمنظومته القيمية، سواء كان ذلك عبر نسيج الثقافة السائدة، أو من خلال استدانته من ثقافات أخرى، فكينونة الجسد لا تتحدّد إلا بوصفه بنية عفوية بايولوجية، كذلك بنية ثقافية و اجتماعية يتواصل فيها البدني بالتصوري و يتعلّق فيه البدن–الجسد ببدن العالم » . (مطر، 2020، صفحة 45)

فالجسد مشبع بتنامي العلامات، يتأوّد ساحرا و معروضا للملاحظة و المراقبة و التأثيم، و هو موضوع يتم عرضه على مدركاتنا، ممزوجا بالأشياء العادية و المألوفة في

حياتنا اليومية، فهو من خلال العمل الفني مفتوح على كل الاحتمالات الممكنة للتأويل. (إدريس، 2013 ، صفحة 7)

يمتلك الجسد هويتين: واحدة فيزيقية و الأخرى سوسيو–ثقافية، و قد ساهمت الأولى في تأسيس الثانية و حددت ملامحها، فأصبحت كتابة الجسد مرتبطة أشد الارتباط بالخرق السوسيوثقافي. (إدريس، 2013 ، صفحة 8)

لكن الجسد في السرد العربي لم يعد مجرد توظيف عابر يرسم علاقة بين الأبطال السرديين...انما تحول آداة تحرير للمؤسسة الجمعية م معتقداتها مهما كان نوعها و مهما كان مدى صحتها. لكن أي تحرير هذا؟

يمتزج الجسد بالشهوة ويصبحان عملة واحدة يقول:« تتمدّد إلى جانبي شبه عارية، جسدها المصبوب من عسل الغواية، ملفوف في إزار قديم شفاف عليه كتابات بخط مائل جميل بالفرنسية و الانجليزية » (الزاوي، 2015، صفحة 11)

يضيف :« كنت أريد أن أتأمل رقبتها؛ الرقبة هي مركز الشبق. كان الفلاسفة والسحرة و الشعراء في القرون الوسطى يعتبرون الشبق هو الموت الصغير » (الزاوي، 2015، صفحة 12)

ينجح "أمين الزاوي" في تحويل الجسد إلى لعبة تخفي جميع القيم الثقافية التي يكتنزها النص، ففي الظاهر يبدو ما يحدث في الرواية ليس مجرد ممارسات للحب فقط بل يحيل للرؤية السائدة في تلك الفترة حول خطاب الأنثى في الجزائر، حيث تمّ تصعيد الدعوات المنادية بحقوق المرأة و حريتها المطلقة.

كما يمزج "أمين الزاوي" الدين و الجسد في حياة كثير من الأبطال في الرواية، فهيتشكوك الذي يقع في المحرمات مع منظفة الفندق، يحلم بأن تبدأ أعماله بصوت الآذان من الجامع الأموي يقول: « أن يبدأ الفيلم برفع الآذان، آذان الفجر من جامع الأمويين فذاك شيء مثير ...للديني و الصوفي و المادي» (الزاوي، 2015، صفحة 55)

يتحدث الراوي كثيرا في النص و في مواقف متعددة عن انتهاك الدين على مستوى النسق الباطن، بينما النسق الظاهر يبدو بريئا للعيان، فالأبطال يعيشون حالة من التناقض(الدين/اللادين) و كأنها حالة من الانفصام، فمنظفة الفندق تجبر على ارتداء

الحجاب ليس رغبة فيه ،بل خوفا من الإخوة المتشددين و بذلك يصبح الدين مجرد نسق ظاهر و الجسد نسقا باطنا مضمرا.

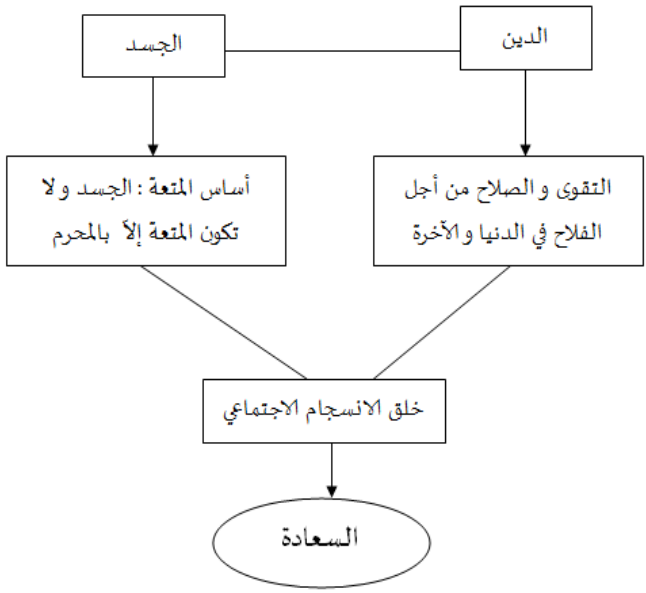

2- جدل الذوات و تثوير السياق:

تستثمر أعمال "أمين الزاوي" السياق، و تحوله بطلا من أبطال العمل، فهو لا يشكل مجرد إطار زماني و مكاني للأحداث، بل يلعب دورا محوريا في حركية السرد و تحديد المرجعيات الثقافية التي تؤطر الخطاب، ففي رواية "قبل الحب بقليل" يتعرض الراوي لفترة مهمة و حساسة في تاريخ الجزائر ، و هي تلك الفترة التي خرج فيها الاحتلال و ترك صراعا خفيا في صفوف الجزائريين، حيث تفكّكت وحدتهم و انقسموا فرقا تتنازع من أجل الحكم و السلطة، ثمّ فترة حكم "هواري بومدين" و اندلاع صراع القيم حيث تتوقف الرواية عند هذه البؤرة.

« فعالم الرواية أشبه بحلبة تتصارع فيها مختلف الأنساق التي تعكسها اللغة، و هي تشكل المحطات الكبرى التي تقف عندها القراءة النقدية لخطاب الرواية، هذا لأنّ تحليل النص

الأدبي وفق المنظور الثقافي يعتمد على وضع النص داخل السياق الثقافي و السياسي الذي أنتجه» (شتيح، 2017، صفحة 479)

فمنذ أول عتبة في النص **(العنوان: قبل الحب بقليل)** يوهمنا الزاوي أنه يكتب رواية عن الحب، و لكن ما إن نندمج في تضاعيف الرواية حتّى نكتشف أن الرواية لم تكتب من أجل الحب بل، تعكس لحظة اللاحب، فما يعيشه الشخوص داخل الرواية ضرب من التيه و الجنس، و يحيل العنوان بقوة لواقع الجزائر آنذاك، فهي مرحلة كان المتوقع أن توحي بالتقارب و التحاب بين الجزائريين، و هي بداية مشروع للألفة و التعاون بينهم من أجل بناء الوطن، لكن الرواية تصف حالة من الفوضى في المشاعر..و أيضا الازدواجية في كل شيء، فالممارسات الدينية ظاهريا في الرواية تعكس معنا مضمرا يعبر عن اللادين، فجميع المقدسات تنتهك بطريقة سرية، و يصبح المدنس شعار الأبطال.

فالأبطال في الرواية هم أبطال إشكاليون، ينظرون إلى الواقع نظرة رومنطيقية تعكس وعيا متعاليا على التاريخ و اللحظة و العالم.

فكثيرا ما تظهر المرأة في الرواية مسلوبة الإرادة، ضعيفة، لا حيلة لها و ذلك ترسيخا للنسق الفكري و التركيبة الثقافية السائدة، فهي تعكس نموذجا واضحا للهوية المهمّشة، ويظهر ذلك جليا في صورة زوجة سي سفيان التي تمارس الجنس مع غيره يقول:« ...وجودها شبه العاري إلى جنبي ضاعف خوفي، و تصوّرت أن زوجها الجنار السي سفيان يراقبنا من خلف الباب أو من تحت السرير، أتوقع انطلاق رصاصة النهاية.. » (الزاوي، 2015، صفحة 12)

لكنه يعقد مقارنة شبه مقصودة مع نمط آخر للنساء، حينما يقوم باستذكار صورة أبويه، و الحب المثالي الذي كان يجمعهما، يقول:« كان شفافا، هو الوحيد الذي بكى على أمي أمام رجال القرية، بكاها و هي حية، و هو يودّعها في سفر لا يزيد الغياب فيه عن شهر » (الزاوي، 2015، صفحة 12) و أيضا في قوله:« كان قلبه ممتلئا بأمّي و بكتاب الله و لا غير» (الزاوي، 2015، صفحة 14) .

توحي هذه المقارنة بين نسقين من الذات إلى التغير القيمي في المجتمع الجزائري، والذي حول المرأة في المجتمع من نسق يحضى بالحب و الاهتمام إلى نسق مشبوه يكسر العرف و الدين.

كما يلعب السياق المكاني(وهران) دورا مهما مثل الأبطال تماما، حيث تصبح بمثابة الوكر الذي تمارس فيه جميع المحرمات باسم الظلم و الإحباط و الفشل.

3- خاتمة:

الحقيقة أن القارئ لأمين الزاوي لا يمل أبدا من قراءته لهذه الرواية أو غيرها من أعماله مهما تعارضت قيمها مع قيم القارئ الذاتية.

ففي هذه الرواية ينجح في إيهامنا بالواقع و تحويلنا جزءا لا يتجزأ من معترك الأحداث، كما يجعلنا نعي طبيعة الأنساق الثّاوية خلف الوقائع و الأفعال و و الأقوال، فيجعل من الجسد علامة ثقافية بارزة توحي بمفارقات عدّة، و يصبح الدين أيضا لعبة في يد الأبطال تمارسه على طريقتها و وفق ثقافتها الشخصية.

إن كتابته لا تكشف عن كاتب محترف فقط بل عن قارئ جيد للتراث العربي الاسلامي والعالمي، إنه يكتب بوعي عميق لكثير من المشكلات و الهموم التي تؤرق المؤسسة الجمعية. إنه يعكس جيلا من أجيال الاستقلال في الجزائر، جيل له آراؤه و مواقفه في السياسة و الثقافة و الحياة.

1. قائمة المراجع:

2. *أحمد خليل أحمد. (2001). موسوعة لالاند الفلسفية (الإصدار 2، المجلد 3). بيروت، لبنان: دار عويدات للنشر و التوزيع.*
3. *الطيب بوقرط. (2020). النقد الثقافي(قضايا و رؤى)، دراسات علمية أكاديمية علمية محكمة، (الإصدار 1). الجزائر: منشورات ألفا للوثائق.*
4. *أمين الزاوي. (2015). قبل الحب بقليل (الإصدار 1). بيروت/ الجزائر: منشورات ضفاف/ منشورات الاختلاف.*
5. *بوركه , ع .ا .(12/08/2017) .أجساد عبد السلام أزدام بين المقدس و المدنس . Consulté le 2017, sur https://diffah.alaraby.co.uk/diffah/arts.*
6. *شهلا العجيلي. (2011). لخصوصية الثقافية في الرواية العربيّة. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.*
7. *صليحة شتيح. (2017). صراع الهويات و الذوات(في رواية القلاع المتآكلة) لمحمد ساري. فصول (مجلة النقد الأدبي)عدد النقد الثقافي (22).*

8. عبد النور إدريس. (2013). النقد الجندري(تمثلات الجسد الأنثوي في الكتابة النسائية) (الإصدار 1). عمان: فضاءات للنشر و التوزيع.
9. ناجي عباس مطر. (2020). الوشم بين الوظيفة الجمالية و النص الثقافي: دراسة ثقافية، مطارحات في النقد الثقافي دراسات علمية أكاديمية محكمة (الإصدار 1). الجزائر: منشورات ألفا للوثائق.